محمد فريد

الشهيد الشريد

- نذر نفسه لمصر.. ومات خارجها.
- مات فى برلين وظل جثمانه بلا دفن ٧ شهور.
- قارع الإنجليز والخديوى وسجن لمقدمة «ديوان شعر».
- دعا للتعليم المجانى وشجع النقابات المهنية.

التاريخ لا يصنعه إلا الرجال العظام، الذين يسطرون صفحات المجد والفخار، بالدم والجهد والعرق والتضحيات الكبيرة، وتاريخ أمتنا العربية غنى بأمثال هؤلاء الرجال الذين قدموا الكثير لأمتهم.. وأناروا للأجيال دروب الحرية والكرامة، من هولاء المناضل المصرى محمد فريد الذى حمل راية الجهاد ضد الاحتلال الإنجليزى بعد وفاة الزعيم الشاب «مصطفى كامل».

وهب «محمد فريد» حياته وعمره كله لوطنه مصر، وكان خير سند لرفيق كفاحه مصطفى كامل، وعندما تحمل المسئولية بعده كزعيم للحزب الوطنى الذى كان يقود حركة الجهاد أثبت أنه من صُناع التاريخ والمناضلين الكبار الذين تهون عندهم الحياة مادامت من أجل الحرية والاستقلال، وظل فريد يناضل ويعمل من أجل استقلال مصر فى المحافل الدولية متنقلاً بين مصر وبلدان أوروبا، حتى مات غريبًا وهو يهتف باسم مصر.

لم يكن محمد فريد مجرد زعيم، بل أحد أهم رموز الجهاد الوطنى فى تاريخ مصر الحديث، وامتدت آثار فعاليات جهاده إلى أوروبا، فقد توزع نضاله السياسى داخل مصر وخارجها فى ارتباط وتناسق. وأبرز ما يميز نضاله أنه لم يكن نضالاً مكملاً لما بدأه سلفه الزعيم مصطفى كامل، إذ سلك مسلكًا جديدًا فأكسب الحركة الوطنية من طابع شخصيته الصلبة وثقافته الواسعة العريضة ووعيه البالغ، بواقع الأحداث فى مصر وتطور الأوضاع العالمية المحيطة. فقد كانت الحركة الوطنية الجهادية المصرية، حتى وفاة مصطفى كامل، تتسم بمحاولة إيقاظ الأمة ودفعها إلى مناهضة الاحتلال وبث روح الوطنية فى النفوس. وكانت مثل هذه الدعاوى حتمية وضرورية بالنسبة إلى الجيل الذى جاء فى أعقاب الغزو الإنجليزى للبلاد وانطفاء جذوة الثورة «العرابية».

فقد وضع لأول مرة برنامجًا لسياسة قومية تُحرك جميع القوى السياسية فى البلاد، على أساس بحث المشكلات الداخلية والخارجية وإشراك المفكرين والكتاب والساسة لتوسيع آفاق الساحة الوطنية، فاحتضن، ومعه صفوة المثقفين فى البلاد، دعوة لإنشاء مدارس الشعب الليلية لتعليم العمال والفقراء مجانًا. وتم بتشجيع منه تأسيس نقابات العمال والصناع. وكانت أول نقابة للعمال فى مصر هى «نقابة عمال الصنائع اليدوية فى بولاق» وكانت تضم ٨٠٠ عضو وظهرت بعدها الحركة التعاونية.

ترصّد وزارة الوفاق

لكن الرجعية ومن ورائها الاحتلال لم تكن بغافلة عن مثل هذه الوثبة الناضجة. وجاءت «وزارة الوفاق» آنذاك لتحاول كسب المعتدلين إلى جانب «الخديوى عباس» وعزل الحركة الوطنية عن الشعب، فأعيد العمل بقانون المطبوعات، الصادر إبّان ثورة أحمد عرابى لتقييد حرية الصحافة، وتوالت المحاكمات وتتابع تعطيل الصحف وبدأ الخناق يضيق على الحركة الوطنية المتفتحة، فتطورت حركة المقاومة تجاه السلطة المطلقة، التى يتمتع بها الخديوى وأصبحت المطالبة والحاجة إلى الدستور والحرية، التى حُرمت منها الأمة هى السبيل لمحاربة الاحتلال، وتوفى الزعيم الوطنى مصطفى كامل فى ١٠ فبراير عام ١٩٠٨م، وانتخب محمد فريد وكيل الحزب الوطنى، رئيسًا للحزب. وقد رأى «فريد» أن يكمل مسيرة مؤسس ورئيس الحزب، وندد فى بلاد الدنيا بما يفعله الإنجليز فى مصر. وكان قد اتفق مع الشيخ عبد العزيز جاويش، على رئاسة تحرير جريدة «اللواء»، ولم يضيع يومًا فى إظهار عدائه للاحتلال البريطانى. فكان أول عمل قام به هو إرسال برقية احتجاج إلى «إدوارد غراى» وزير خارجية إنجلترا، قال فيها «الجمعية العمومية للحزب الوطنى انتخبتنى رئيسًا بدل المرحوم مصطفى كامل باشا، وكلفتنى بأن أُجدد احتجاجها على احتلال القطر المصرى بلا حق، وتعلن عزمها على السير فى خطة المرحوم الرئيس حتى تفى إنجلترا بعهودها».

ووقف محمد فريد يخطب يوم ١٤ سبتمبر ١٩٠٨م، بمناسبة ذكرى الاحتلال فقال: «إن الأمم تحتفل بحريتها واستقلالها، فمتى نحتفل نحن بالجلاء، ونصبح أحراراً فى بلاد حرة؟». وقال أيضا: «اذكروا يوم ١٤ سبتمبر ولا تنسوه أبدًا. . اذكروه كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً. . اذكروه قيامًا وقعودًا وعلى جنوبكم».

وكانت مطالبته بالجلاء تسبق مناداته بالدستور، لدرجة أنه لم يتردد يوم رأى الخديوى بعد رحيل كرومر، يسعى إلى محالفة المحتلين ويقلع عن تعضيد الحركة الوطنية فى أن يعاديه علنًا ويندفع ليكتب بشجاعة وثبات، عدة مقالات فى اللواء تحمل على الخديوى حملة عنيفة. . «مما يجب علينا إعلانه والجهر به أمام الملأ كله، أن تصريحات الجناب العالى لا تقيدنا بأى حال، إنّ كل مصرى لا يقبل مطلقًا أن يكون حكم مصر ومصيرها، فى يد الخديوى بمفرده، أو فى يد المعتمد البريطانى».

ثم ما لبث أن طالب الخديوى بإلغاء القانون الخاص بتأليف محكمة خاصة لمحاكمة من يتهم بالتعدى على جنود الاحتلال، وهى المحكمة التى لعبت دورًا شاذًا وغريبًا فى واقعة «دنشواى»، واعتزم فريد السفر وذهب لمقابلة الخديوى عباس قبل السفر وأعلنه بما يعتزم فعله، وأنه سيكمل مشوارًا بدأه مصطفى كامل حتى لا يُقال إن الحركة ماتت بموته، وأنه سيعلن للعالم أن الحركة الوطنية قوية ولا تقوم بقيام شخص ولا تموت أو تسقط بموته، وقد وافقه الخديوى على مضض وبدأت بذور الخلاف تنمو منذ هذا اللقاء بعدما حذر فريد الخديوى من محاولات إبطال فعاليات مساعيه وإفشالها، بإرسال من يسعى ويعرقل مسيرته، كما حدث من قبل عندما أرسل الخديوى حافظ عوض وأباظة باشا والشيخ على يوسف خلف فريد لمعاكسته، لكن الخديوى وعده بألاّ تتكرر مثل هذه المحاولات وأنه غير مسئول عنها. لكن مخاوف الخديوى زادت، لأنه كان قد حَسَنَ علاقاته أكثر مع الإنجليز وبدأت جريدة «اللواء» تنشر أخباره

وتنقلاته، وكذلك جريدة «المؤيد» التى يرأس تحريرها الشيخ على يوسف. وأيضًا جريدة «الأهرام» واشتد الصراع وكتب فريد عن أول صداماته مع الخديوى فى مقال بعنوان «ماذا يقولون؟!» كشف فيه كيف خان الخديوى البلاد بسياسة «الوفاق» مع الاحتلال.

الثائر المقلق

وتمضى الأيام بفريد بين جهاد وجهاد. وكتب محمد فريد مقالاً عن الشعر وعلاقته بإذكاء الوطنية ونشره كمقدمة لديوان شعر بعنوان «وطنيتى»، للشيخ «على الغاياتى»، هاجمت كلماته الاحتلال وخيانة الخديوى البلاد وفساد الحاشية، ولم يكن ديوان «وطنيتى» هو القضية وإنما مجرد ذريعة مكشوفة للزج به فى السجن حتى تلين قناته ويصمت أو تعتدل لهجته الوطنية، وقد فطن عشاق الوطن للمؤامرة فحذروه ونصحوه بالبقاء فى أوروبا، ولكنه رفض وصمم على منازلة الأعداء، وصح عزمه عندما بعثت إليه ابنته فريده وقالت له: «أتوسل إليكم باسم الوطنية والحرية أن تعودوا وتتحملوا آلام السجن فهو أشرف من أن يُقال إنكم هربتم».

وما أن عاد محمد فريد إلى مصر أواخر ديسمبر سنة ١٩١٠م، حتى تلقفته النيابة العمومية فى الرابع من يناير سنة ١٩١١م للتحقيق معه، وعُقدت المحكمة يوم ٢٣ يناير. ورفض فريد أن يترافع عنه المحامون، لأنه ليست هناك إدانة واضحة، وكانت المحكمة برئاسة القاضى دولبر غلو، وحين سُئل محمد فريد عن التهمة التى نسبت إليه عن مقدمة ديوان الشعر، قال إن الكتاب ظهر وهو فى أوروبا وإنه كتب المقدمة قبل سفره كمقالة تحبذ الجهاد فى سبيل الأوطان وإنها تصلح مقالة مستقلة كما تصلح مقدمة للديوان.

من سجن إلى سجن

وُحكِمَ على فريد بالسجن ستة أشهر، وبعد أن سجنوه أرادوا مساومته على وأد الحركة الوطنية أو استئناسها نظير العفو عنه، لكنه رفض ورفض أن يُهادن

الحكومة بعد خروجه، إذ قال فى الحفل الضخم ، الذى أقامه له الحزب الوطنى: «إنه قد خرج من السجن إلى السجن»، وهى عبارة ظل يكررها دائمًا فى مقالاته كاشفًا أن السجن لم يزده إلاّ صلابة، وكان ذلك فى الوقت الذى ملأ الرعب صدور الحكام بتعيين «كتشنر» معتمدًا بريطانيا فى مصر، إلاّ أن إيمان محمد فريد بقضية بلاده زاده إصرارًا على المطالبة بالجلاء والتنديد بالاحتلال وكل من يتعاون معه، وخاصة خديوى مصر باعتباره رأس النظام. وقد كان ذلك الجهاد سبب المشاق والمصائب، التى دفع محمد فريد ثمنها من استقراره وصحته.

إعلان الحرب

وتمضى الأيام والخديوى عباس الثانى يتربص به، حتى حدث فى ١٩ يناير ما كان سببًا غير خفى فى العداء لفريد. ففى ذلك التاريخ ١٩١٢ أُقيمَت حفلة لرعاية الأطفال تحت رعاية الخديوى وحضرها مندوب عنه. وعند دخول المندوب عزفت الموسيقى النشيد الخديوى ووقف الجميع تحية لاسم الخديوى، ما عدا محمد فريد، مما استرعى أنظار الحاضرين جميعًا وكانت هذه الحادثة هى الأولى من نوعها، فتناقلتها الصحف والسنة العامة والخاصة وكانت لها ضجة داخل السراى الملكية، وعندما حاول قائمقام الخديوى مخاطبة فريد فى ذلك، ليقدم اعتذارًا بأنه ما كان يقصد إهانة الخديوى بعدم قيامه عند عزف الموسيقى، قال بغضب: «ليس هناك قانون يحتم علىّ الوقوف». وكانت تلك الحادثة بمثابة إعلان حرب على الخديوى والخروج على الاحترام اللائق به.

وألقى محمد فريد خطبته السنوية فى جمعية الحزب الوطنى العمومية يوم الجمعة ٢٢ مارس ١٩١٢م ونُشرت حرفيًا فى جريدتى اللواء والعلم، وكانت خفيفة اللهجة بالنسبة إلى الخطب السابقة. لكن، للأحداث المتوالية واللتربص الحادث، وجد فريد من يطلب لقاءه. جاء أحد رجال الشرطة لمقابلته، فدُهِشَ لأنه لم يخطر بباله مطلقًا أن فى خطبته شيئًا يُعاقب عليه. وزادت دهشته لمّا اطّلع على الجواب الذى يحمله، فوجده يدعوه لمقابلة رئيس نيابة مصر لاستجوابه عما جاء فى الخطاب. وفى تلك اللحظة، صمم محمد فريد على ترك مصر.

الصفحة الأخيرة

وكانت الصفحة الأخيرة فى جهاد محمد فريد خارج مصر. ففى عام ١٩١٢م حضر مؤتمرالسلام فى جنيف ووزع على أعضائه مذكراته عن القضية المصرية، التى تقرر عرضها فى النهاية على المؤتمر، وأصدر فيها المؤتمر قراره القاضى بضرورة الجلاء فوراً عن مصر، لأن الجلاء عن مصر، كما جاء فى نص القرار هو «خدمة للسلام العالمى». وسافر فى العام الذى تلاه إلى لاهاى، لحضور مؤتمر السلام الذى عُقد فيها. وظل على جهاده فى تلك الفترة، التى اتسمت بظهور الحركة الاشتراكية فى أوروبا وانتشارها على نطاق عالمى واسع، كما اتسمت هذه الفترة بقيام حركة السلام العالمية، التى كان يحمل لواءها ساسة أوروبا الأحرار ومفكروها وزعماء الاشتراكية والأحزاب العمالية، فكان حتمًا ولزامًا على زعيم وطنى فى ثقافة فريد ووعيه وإخلاصه ألاّ يرتكن فى الدفاع عن قضية بلاده على الحكومات الاستعمارية، التى كانت تعد العدة للحرب فى سبيل اقتسام العالم، وإنما يلجأ إلى الجهات الشعبية التى تنادى بالسلام والحرية وتقاوم الاستعمار مقاومة عنيدة.

رسالة الوداع

وجاء السطر الأخير، ومات فريد فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ فى برلين. وتروى الوثائق أن محمد فريد عندما أحس أن الموت يقترب منه قال لمن حوله: «إنى وأولادى وكل عزيز لدىّ فداء مصر، لقد أمضيت بعيداً عن مصر سبع سنوات، فإذا مت فضعونى فى صندوق واحفظونى فى مكان أمين حتى تُتاح الفرصة لنقل جثتى إلى وطنى العزيز، الذى أُفارقه وكنت أودّ أن أراه..» وكأن هذا الرجل كان يعرف أن أجله المحتوم سوف يوافيه فيحرمه من لقاء وطنه، فكتب قبل شهرين من وفاته «رسالة الوداع» يعبر فيها عن أوجاعه ومعاناته بكلمات حب وعشق كبير لمصر.. فيقول:

«إخوانى المصريين الأعزاء.. إنّ الصوت الذى يناجيكم اليوم لصوت منعته

الظروف عن الارتفاع فى صحف مصر منذ نحو سبع سنوات، ولكن منعه عن الارتفاع على ضفاف وادى النيل لم يكن عقبة تعوقه عن الدفاع عن القضية المصرية فى عواصم أوروبا، سواء قبل هذه الحرب أم فى أثنائها أو بعدها.. إن صوت هذا الضعيف لم يخفت يومًا واحداً ولم يتأخر عن القيام بما تفرضه عليه الوطنية طرفة عين، بل كان يزداد قوة ونشاطًا كلما تراكمت أمامه العوائق وتكدست العقبات».

سلام على النيل ووادیه

ويختم رسالته، التى كتبها على سرير المرض فى مدينة تريتيه فى سويسرا، التى كان يُعالج فيها فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩١٩م قائلاً:

«سلام عليك أيها الوطن المفدّى..

سلام على النيل ووادیه..

سلام على الأهرام وبانيه..

سلام على خُدّام مصر المخلصين..

سلام على شهداء الحرية..».

ثم توقف قلب الزعيم محمد فريد فى الساعة الحادية عشرة من مساء يوم السبت ١٥ نوفمبر عام ١٩١٩، داخل مصحة الدكتور ستوكمان، الواقعة فى شارع مارتن فى برلين فى ألمانيا، وتعرض الجثمان للإهمال، فظل محفوظًا فى تابوت فى إحدى الكنائس القريبة من مقابر المسلمين فى برلين طوال سبعة شهور، دون أن تتحرك أى هيئة رسمية لإعادة الجثمان إلى مصر وإعطائه ما يستحق من تكريم، جزاء ما قدمه لمصر وشعبها من نضال أنفق فيه كل عمره وما يملك.

وجاء التاجر المصرى الحاج خليل عفيفى، وهو من مدينة الزقازيق، ومن تلقاء نفسه. ملبيًا صوت الضمير ونداء الوطن، حيث أبحر على نفقته الخاصة من الإسكندرية يوم الجمعة ٥ مارس سنة ١٩٢٠م، قاصداً برلين عن طريق فرنسا،

ولم يكد يصل إلى باريس حتى علم بنشوب الثورة الألمانية فأقام فى باريس نحو خمسين يومًا حتى استقرت الأحوال فى العاصمة الألمانية، ثم سافر إليها. وواجهته فى برلين عقبات جديدة. منها أن الحكومة الألمانيَة كانت قد أصدرت قانونًا قبل ثلاثة أسابيع من وصوله يقضى بعدم جواز نقل جثث المتوفين، من ألمانيا، إلى بلاد أخرى. وخلال إقامة الحاج خليل فى ألمانيا طلبت الحكومة الفرنسية إلى ألمانيا الترخيص لها بنقل جثمان ضابط فرنسى، فأذنت لها الحكومة الألمانية على سبيل الاستثناء، فاستند الحاج خليل إلى هذه السابقة، وأعاد الرجاء على الحكومة طالبًا أن تأذن له بنقل جثمان محمد فريد. ونجحت جهود الحاج عفيفى وصدر الإذن بذلك. ثم استصدر إذنًا من حكومة النمسا بالسماح له بمرور الرفات من أراضيها. وكذلك الحال مع الحكومة الإيطالية. وتم للرجل ما أراد، واتفق المصريون المقيمون فى برلين على الاحتفال بتشييع رفات الزعيم إلى محطة برلين. ونقل الرفات يوم الجمعة ٢١ مايو سنة ١٩٢٠، فى جنازة سار فيها جميع المصريين المقيمين فى العاصمة الألمانية. ووضع فى عربة خاصة فى القطار، الذى نقله إلى ميناء «تريستا» فى إيطاليا، حيث أقلته الباخرة «حلوان»، التى أبحرت يوم ٣ يونيو قاصدة الإسكندرية ووصلت، صباح الثامن من يونيو، وكان الحاج خليل قد أبرق إلى الصحف بنبأ إقلاع الباخرة، فاستعد الشعب المصرى لاستقبال الجثمان وتشييع جنازة الزعيم فى الإسكندرية. وتألفت لجنة برعاية الأمير عمر طوسون، للاحتفال بالجنازة عند وصول الجثمان، ودفن «الزعيم» فى القاهرة بعد جنازة مهيبة فى الإسكندرية والقاهرة.